الرؤية التداوليّة عند الفلاسفة المعاصرين وكيفيات تجاوز الجمود الراهن

محمد أوبلوش ■

عرفتْ نهايةُ القرن 19 وبداية القرن 20 نهايةَ مشروع الأنوار القائم على العقلانية، وكانت النتيجة الاستسلام لمرحلة خسوف العقل كما عبّر عنها أدورنو، وهي النتيجة التي انتهت إليها الحضارة الغربية المعاصرة، وهذا ما أدى من ثم إلى غياب مشروع فلسفي متكامل قادر على التأمل في الإشكالات الجديدة. ومع فقدان الفلسفة لمعناها التنويري، ظهرت بعض التيارات الفلسفية التي دعت إلى ضرورة الاهتمام بالمعرفة العلمية كبديل عن المعرفة الفلسفية، وهذا ما شهدناه مع الوضعية المنطقية، وما تولد عن ذلك من خطاب النهايات مع البنيوية التي أعلنت نهاية الفلسفة ونهاية الإنسان؛ لكن هذه الخطابات المبشِّرة بنهاية الفلسفة لم تكن تعبِّر في كثير من الأحيان سوى عن نزعة ذاتية مناهضة للفلسفة، ولأن الفلسفة ستعود في ثوب جديد من خلال الكثير من القضايا والمباحث، على سبيل المثال مبحث فلسفة اللغة في بُعْدِهِ التداولي، والذي جعل فلسفة اللغة تسعى إلى البحث في جوهر الإنسان ووجوده، وأصبح عمل اللغة مرتبطاً بقدرة الفكر على اختزال تلك

■ باحث في الفلسفة، المغرب.

العلاقة التواصلية بين المتكلِّم والمتلقِّي، ومن ثم تعزيزها بآلياتٍ وأنساقٍ جسدت حضور المقاربة التواصلية والألفاظ المنطوقة والمكتوبة التي كانت إعلاناً صريحاً عن ميلاد فلسفة اللغة من داخل حقل التداوليات. سواء في شقه الفلسفي مع فوكو وهيدغر أو ضمن حقل التأويليات مع غادامر وريكور وشلايرماخر، أو في بُعْدِهِ السوسيولوجي مع بورديو وهابرماس.

لقد أسهم ميلاد فلسفة اللغة في بزوغ سجال فلسفي عميق، كان محوره ضمن حدود لغة المواجهة والصراع بين النظرية النقدية وبين تأويلية التراث عبر ممثليْن أساسييْن للفلسفة المعاصرة، وهما: «هابرماس وريكور»، بالإضافة لفلاسفة اللغة خصوصاً وهو حقّاً سجال يتجاوز النقاش الهيِّن الذي يمكن أن يحصل بين الفلاسفة حول القواعد المنهجية للعلوم الاجتماعية. بل إنه سجال يتعلّق برهان فلسفي أساسي يَمُس مباشرة مجمل الشروط التاريخية التي يمكن أن تخضع لها عملية الفهم لشروط الوجود الإنساني. مما وضع الفكر الغربي أمام رهان يقدّم نفسه على شكل اختيار بين بديلين: إما الميل مع العقل الهرمنيوطيقي القاضي بتجذير الوعي التاريخي في التراث، وإما الميل مع العقل النقدي القاضي بضرورة الالتزام بالشكل الثوري للوعي وضرورة تحريره من أوهام التقنية والإيديولوجيا.

فإذا كانت فلسفة اللغة تعتمد على تحليل اللغة العادية وأفعال الكلام في تفسيرها للنشاط الاجتماعي، وتتصور العلاقات القصدية بين الذوات على غرار العلاقات المنطقية الحملية بين القضايا؛ فإن التداولية الكونية عند يورغن هابرماس تنطلق من مشروع الأنوار؛ لذلك عدّ هابرماس الحداثة مشروعاً لم يكتمل بعد، جاعلاً من الفلسفة النقدية بديلاً يحرص على ضمان صلاحية الخطاب، مستعملاً براديغم الفعل التواصلي في الفضاء العمومي، والذي سيمكِّن من إعادة بناء عقلانية النقاش وفق دلالية التواصل اللغوي. وسنتوقّف عند المقولات النقدية التي استعملها هابرماس في مشروعه السياسي والتواصلي ذي البعد الكوني. وفي إطار الرؤية التداولية التي ظهرت بمسميات كثيرة في الفلسفة المعاصرة، سنسلط الضوء على مَن سبقه في ميدان فلسفة التواصل بشكل عام، والتداولية بشكل خاص، ففوكو

مثلاً عبّر عنها بما يسمى الممارسة الخطابية في إطار التشكيلة الخطابية، مختلفاً مع ريكور الذي تحدّث عن الاستعمال اللغوي ضمن ما يسميه نظرية التأويل الملائم؛ ليؤكد على خاصية جوهرية ترتبط بالتداولية، وهي أن اللغة ليست عالماً مستقلاً بذاته، بل هي ليست عَالَماً. ولكن لكوننا نعيش في العَالَم، ولكوننا نتأثر بمواقف الآخرين الموجودين بهذا العَالَم، ولكوننا نتجه بأنفسنا كُلّيةً إلى هذه المواقف؛ فإن لدينا ما نقوله، ولدينا تجارب وخبرات تنقلها اللغة. بمعنى أن اللغة لا تَتَجِهُ للتعبير عن قصدية متعالية، بل تحيل كذلك إلى ما يوجد في الخارج. هذا الميدان الذي يُعنى ـ في أَسَاسِه ـ بدراسة استعمال اللغة لدى منتجيها، واستراتيجيات تأويلها من طرف المتلقّي، عبْر عمليات استدلالية ومنطقية تخضع للخلفيات والسياقات الاجتماعية والمعرفية. وهذا العمل يتطلّب منا رصْدَ تطور البنى اللغوية في مدارس الفكر اللساني الحديث، خصوصاً مع مفارقات المنعطف اللغوي، الذي قام ببعث هذه النظرة وجعل من اللغة آلية تعبّر عن تجربة الفكر في التأسيس للتواصل الاجتماعي قَصْدَ تحديد النسق أو النظام الذي تقوم عليه آليات الخطاب. والبحث الذي نتقدّم به الآن ـ والذي موضوعه «**الرؤية التداولية عند الفلاسفة المعاصرين وكيفيات تجاوز الجمود الراهن**» ـ **سينطلق من الإشكالية التالية**: ما منزلة اللغة كرؤية تداولية في الفلسفة المعاصرة؟ وكيف طور الاتجاه الهرمنيوطيقي اللغة وجعلها استراتيجية لفهم تشكُل العالم المشترك للأفراد والجماعات؟ وكيف جعل هابرماس نظرية اللغة وسيطاً تداولياً لبناء نظريته في العقلانية التواصلية؟ وهل هذا العالم لا يمكن إدراكه وفهْمُهُ إلا بواسطة اللغة؟ وكيف يمكن تجاوز الجمود الراهن للفلسفة المعاصرة الذي خلَّفه تعددُ المنعطفات التداولية (لغوية، تأويلة، تواصلية)؟

أسهم ميلاد فلسفة اللغة في بزوغ سجال فلسفي عميق، كان محوره ضمن حدود لغة المواجهة والصراع بين النظرية النقدية وبين تأويلية التراث عبر ممثليْن أساسييْن للفلسفة المعاصرة، وهما: «هابرماس وريكور».

أولاً: في مفهوم التداولية

إن التفكير بحد التداولية ـ من حيث هي آلية تُيسّر الفهم وتُحقّق النجاعة ـ يواجه صعوبات جمة، أهمها الاختلافات السياقية التي تصل حد التناقض بين من استخدموا هذا المفهوم، وهذا أمر يتأكد بالعودة إلى معجم لالاند، الذي تحول فيه تعريف التداولية إلى عرض للتصورات ثم المقارنة بينها. ومع ذلك يظلّ التعريف القائل بأن التداولية «مذهبٌ مِنْ خلاله تكُون الحقيقة محايثةً وبإطلاق للتجربة الإنسانية، وتكون المعرفة أداة في خدمة الفعالية وللتفكير خاصية تليولوجية بالأساس، فحقيقة قضية تتمثّل إذاً في الفعل الناجع والناجح والمُرْضية»[1]. وتعنى التداولية ـ في رأي شارلز موريس Charles Morris، بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها. والذي استقر في ذهنه أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان (الآن، هنا)، والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئية خارج اللغة نفسها؛ أي من المقام الذي يجري فيه التواصل، ومع ذلك ظلّت التداولية كلمة لا تغطي أي بحث فعلي[2]. كما تختصّ التداولية pragmatics بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب) ويفسّره المستمع (أو القارئ)؛ لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة[3]. مما يعني أن التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم. وفق هذا التعريف تكون التداولية هي دراسة المعنى السياقي.

ولتحديد المفهوم بدقة نجد التداولي ليفنسون ـ في كتابه Pragmatics، والذي يضم عدة تعريفات لمفهوم التداولية ـ حدده كما يلي:

أ ـ التداولية هي دراسة للاستعمال اللغوي، الذي يقوم به أشخاص، لهم معارف خاصة، ووضعية اجتماعية معينة.

---

1 ـ André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, op. cit, p.805.

2 ـ آن روبول وجاك موشلار، **التداولية اليوم علم جديد في التواصل**، ترجمة، سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص 29.

3 ـ جورج يول، **التداولية**، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، الطبعة الأولى 2010، ص 19.

ب ـ التداولية دراسة للمبادئ التي تؤهلنا لإدراك غرابة بعض الجمل، أو عدم مقبوليتها.

ج ـ دراسة اللغة في إطارها الوظيفي: أي محاولة فهم اللغة بالاعتماد على عناصر غير لغوية.

د ـ التداولية دراسة للعلاقات بين اللغة والسياق، أو هي دراسة لكفاية مستعملي اللغة في ربطهم للغة بسياقاتها الخاصة[4].

لا يهمنا سرد تعريفات كثيرة بقدر ما يهمنا أن نحدد المجال الذي يتقاطع مع بحثنا، وهو ما ورد لدى ريكور حينما بيّن أن ما يسميه «أفعال الخطاب» يحدث نقلة من مستوى «علم الدلالة إلى التداولية»، أي من فلسفة للغة تعمل على كشْف حقيقة الذات، إلى نظرية في اللغة تركِّز على سياقات التخاطب، دون أن يعني ذلك أن التداولية تلغي ما حققه البعد الدلالي، فالتداول في اللغة يرتبط بالاستعمال الفعلي للغة وللسياق الذي يتم فيه التحاور، وذلك بعَدِّ القول فعلاً يدل على فاعله. وعلى هذا النحو يتكامل البعد الدلالي المرجعي مع البعد التداولي التفكيري[5]؛ أي دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت نفسه. رغم أن هناك من قال بأن «حقل التداولية ـ بوصفه كياناً غامضاً، أو قُلْ: جراباً جديداً ـ توضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات، المؤسسية، وهي اللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والدلائلية، (...) نحو المشاكل التي أثارتها هذه الاختصاصات ولم تتوصل إلى معالجتها بشكل مُرْضٍ»[6].

إنّ التفكير بحد التداولية ـ من حيث هي آلية تُيسّر الفهم وتُحقّق النجاعة ـ يواجه صعوبات جمة، أهمها الاختلافات السياقية التي تصل حد التناقض بين من استخدموا هذا المفهوم، وهذا أمر يتأكد بالعودة إلى معجم لالاند.

4 ـ إدريس مقبول، **الأُسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه**، عالم الكتب الحديث، الطبعة الأولى، 2007، ص 264.

5 ـ سامي الغابري، **المسألة الإتيقية من خلال كتاب پول ريكور عين الذات غيرا**، دار الخليج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015، ص 46.

6 ـ فيليب بلانشيه، **التداولية من أوستين إلى غوفمان**، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار، سورية، الطبعة الأولى، 2007، ص 17.

لا تقتصر التداولية على الجانب اللسـاني في فهم الخطاب؛ بل حاولت أن تحيط بكل جوانبه، فنجد في هذه المقاربة تداوليات وليس تداولية واحدة؛ إذ نميّز فيها بين تداولية صغرى؛ تتجه نحو السـياقات اللغوية الجزئية، وتداولية كبرى، تتجه نحو السـياقات الاجتماعية، وما وراء التداولية؛ التي تتجه إلى وعي الناس التداولي[7]، وهكذا، فالتداولية: «ليست علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي، ليست علماً يكتفي بوصف وتفسير البُنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاسـتعمال»[8]. وهذا ما سنركز عليه في هذا البحث، أي على السياقات الاجتماعية المرتبطة بما وراء التداولية، وبالخصوص **المنعطف اللغوي** مع فيتغنشتاين، **والمنعطف التأويلي** مع ريكور، **والمنعطف التواصلي التداولي الكوني** مع هابرماس.

ثانياً: المنعطف اللغوي[9]

إن التفكير في الخطاب الفلسـفي المعاصر يذكرنا بمـدى غياب وتراجع الحدود الفاصلة بين حقول المعرفة المختلفة، فلقد أضحت النظريات المتداخلة شعاراً لتشعّب التيارات، بل حقيقة تكشف تشـظّي المنهج وتشتّته. لذلك نجد

7 ـ بومنقاش الرحموني، **الخطاب النقدي العابر للتخصص: التداوليات المدمجة أنموذجاً**، مجلة البراديغم، العدد الثاني، 2015، ص 15.

8 ـ صحراوي مسـعود، **التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي**، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص 16.

9 ـ المنعطف اللغوي هو مصطلح اسـتعمل للدلالة على خاصية انفرد بها القرن العشرون، تتمثل في أن الفلاسفة عِوَضَ أن يسـتعملوا اللغة للتعبير أو الحديث في مجالات الأخلاق والوجود، فإنهم انعطفوا نحو التركيز على اللغة في حـدّ ذاتها. وهو الأمر الذي تم تأكيده من طرف «ميشـال دافيت» و«ريشارد هاكي»، حين ذهبا في كتابهما «فلسفة اللغة» إلى القول: مع المنعطف اللغوي في القرن العشرين أحيا الفلاسفة واللغويون الرؤية اللغوية؛ أي اللغة. وهناك إختلاف حول أصل المفهوم؛ فمنهم من يعزوه إلى مور وراسل، ومنهم من ربطه بفيتغنشتاين واهتمامه الكبير باللغة، ومن بينهم «رورتي» الذي عزا إليه المنعطف اللغوي رفقة «هايدغر» وأعرب في أكثر من مرة عن إعجابه الشديد به وتأثره بأفكاره، ومنهم من أرجعه إلى أعمال فريجة، التي تأثر بها العديد من الفلاسفة، حين اتخذ من التحليل المنطقي منهجاً لمعرفة المقومات المنطقية في اللغة.

ينظـر: Michal Davitt: Richard Hacky: The Black Well Gide to the Philosophy of Language, Black Well Publishing, USA, 2006.169.

اللغة - التي استعملها الإنسان للتعبير والتواصل والوصف - أصبحت تعبّر عن اللامعنى تارةً وعن الكينونة تارةً أخرى. مما جعل هذا الخطاب يتميز بصعوبة الإحاطة بمتاهاته، والتخلّص من مفارقاته، لذلك جاءت إسهامات فيتغنشتاين في مجال الدراسات اللغوية بشكلٍ مختلفٍ، بحيث كان من المهتمين باللغة التداولية وبأفعال الكلام، وهي لغة التواصل مع الآخرين؛ لهذا يقول: «عندما أتحدث عن اللغة) لفظة، قضية، إلخ (لا بدَّ أن أتحدّث عن اللغة اليومية، فهل هذه اللغة فظة، مادية، إلى درجة أنها لا تسمح بالحديث عمّا نريده؟»[10]. لقد أكد هذا الفيلسوف - في اهتماماته باللغة - فكرة مفادها) وصف الاستعمال الشائع للغة ودراسة حالات ورودها (مبيناً بذلك أن الأقوال المنطقية فارغة؛ لأنها من تحصيل الحاصل، مشكّلة إطاراً صورياً ما قبلياً للمعرفة العلمية، وهو الأمر الذي جعله يترك تحليل البنية المنطقية للغة العلمية ويهتم باللغة العادية[11].

إنّ التفكير في الخطاب الفلسفي المعاصر يذكرنا بمدى غياب وتراجع الحدود الفاصلة بين حقول المعرفة المختلفة، فلقد أضحت النظريات المتداخلة شعاراً لتشعّب التيارات، بل حقيقة تكشف تشظّي المنهج وتشتّته.

لقد اكتشف **فيتغنشتاين** علاقة التماثل القائمة بين تركيب العالم وتركيب **اللغة**، ولكن ثمة أشياء في ذاتها هي موجودة ولم ينكر وجودها على الإطلاق، ورغم ذلك لا يمكن للمنطق أن يتناولها، ولا تستطيع اللغة أن تعبر عنها، إن هذه الأشياء المتجلّية يستحيل وصفها بل نعرفها عن طريق المشاهدة والكشف، ويعني بذلك فكرة الوجود الكلي أو العَالَم بمعناه الأنطولوجي، إن تعبيرنا عن هذا العَالَمْ يعني تجاوزنا لحدود اللغة؛ لأن اللغة لا تتناول سوى الوقائع[12]. وهذا يذكّرنا بموقف **كراتيلوس** (تلميذ هيراقليطس) في محاورة **أفلاطون**، الذي يرى أن اللغة لا تستطيع قول الحقيقة؛ لأن العقل غير قادر على ضمان تطابق

10 - لودفيك فيتغنشتاين، **تحقيقات فلسفية**، ترجمة عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى 2007، الفقرة 120، ص 198.

11 - فيليب بلانشيه، مرجع سابق، ص 31.

12 - نصيرة جعيداني، **إشكالية اللغة في فلسفة لودفيغ فيتغنشتاين**، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 1، العدد 1، 2013، ص 216.

الأسـماء والجمل والدلالات مـع ما تحيل له مـن خلال الاختزال اللسـاني. ما الفائدة إذن خلف التعاطي لصناعة الكلمات، ما دامت الغاية القصوى التي يرومها المستعمل للغة غير محققة: يصبح الراغب في درك الحقيقة أشبه بحال من يحاول مسك الطير وهي تطير، كما يقول ابن رشد[13]. لقد أدرك فيتغنشتاين أن الوظيفـة الحقيقية للغة هي صـورة لحياة الناس؛ لأنهـا تعبر عن مختلف طموحاتهم وقلقهم وحبهم وحزنهم وترددهـم وألعابهم، ويطلق عليها مصطلح ألعاب اللغة[14]، ويقول في ذلك: «سأسمي كذلك «لعبة لغوية» الكل الذي تكونه اللّغة والأفعال التي تنضوي تحتها»[15]. مما يعني أنه عرض فكرة (ألعاب اللغة) عند اهتمامه بدراسة العلاقة بين الفكر واللغة، مبيّناً أنهما غير منفصلين وأنه لا وجود للغةٍ خاصة بالفرد، وإنما كل ما فـي الأمر أن الفرد يتبع في تراكيبه لغة عموم مجتمعه، مستبدلاً معنى التواصلية في اللغة بالتعبيرية[16].

والمقصود بذلك هو أن اللغة جزء من الفاعلية الإنسانية أو صورة من صور الحياة. لقد توصل فيتغنشتاين ـ في كتابه **تحقيقات فلسفية** ـ إلى فكرة أساسية، مفادها أن اللغة ـ بنظامها النحـوي والدلالي وصيغتها ـ التداولية أصبحت هي المنظّم المحدّد لبنية العالم؛ أي بحسب تصوره «أن تَفْهم قضيّة يعني أن تَفْهم لغةً. أن تفهم لغة يعني أن تتحكّم في تقنية»[17]، ويقصد بالتقنية اللغة بوصفها لعبة لغوية محكومـة بقواعد تجعل امتلاكها عبارة عـن امتلاك «مهارة». وهذا يؤدي بتحرير اللغة من سطوة الميتافيزيقا، ولتجاوز البعد الميتافيزيقي للغة يقر فيتغنشتاين أنه ما لا يمكن أن نتحدث عنه ينبغي أن نلتزم الصمت تجاهه. وهو موقف فلسـفي يعود لكراتيلوس الذي كان يمتنع عن الكلام، ويضع أصبعاً على فمه مبرراً ذلك بقوله إن اللغة تقول الخطأ. وهذا الفعل لا يؤكد إلا أن الصمت

13 ـ التهامي الضرضاري، **نظرية اللسان في فلسفة الإغريق**، الجزء الأول: فقه الشذرات، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2016 ص 89.

14 ـ نصيرة جعيداني، مرجع سابق، ص 217.

15 ـ لودفيغ فيتغنشتاين، مرجع سابق، الفقرة 7، ص 124.

16 ـ خليفة بوجادي، **في اللسـانيات التداولية ـ محاولة تأصيلية**، بيت الحكمـة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص 51.

17 ـ لودفيغ فيتغنشتاين، مرجع سابق، الفقرة 199، ص 246.

يعني لغة المعنى والوجود. لكن فيتغنشتاين ظلّ متمسّكاً بنقده لغموض الفلسفة وانتصر للغة كخيار تداولي للإجابة عن المشكلات واعتبرها الألية الأساسية في ذلك، فالسبيل الوحيد لفهم القضايا الفلسفية لا يكون إلا بالرجوع إلى اللغة، لأن المشكلات الفلسفية تولد حين تكون اللغة معطلة أو غائبة. «لا يمكن للفلسفة بأي حال من الأحوال أن تتدخّل في الاستعمال الحقيقي للّغة، بل لا يسعها في آخر المطاف إلّا أن تصفه فقط»[18].

إن موضوع التداولية لم يكن دراسة اللغة في حد ذاتها بل دراسة استعمالها، وهو الأمر الذي لا ينحصر في الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق وعلى مستواها الصوري المجرّد فحسب، إنما يتجاوزها إلى أحوال الاستعمال حسب مقاصد المتكلمين والمخاطَبين[19]، وهو ما أشَّر إليه «برجسون» حين قال: «وليست الأشياء الخارجية هي التي تختفي عنا خلف الكلمات فحسب؛ بل تتوارى عنا كذلك أحوالنا النفسية في حمولتها الحميمية والشخصية، وفي تجربتنا المعيشة على نحو أصيل»[20]. أي أن اللغة تعجز عن الوصول إلى كنه الفكر وصميمه. من هنا لا يمكن بأي حال من الأحوال الإلمام بكل الحقول على وجه الدقة والشمول؛ لاتساع مجالها وتعدد ظروف نشأتها. لذلك ركزنا على فيتغنشتاين؛ لكونه فتح المجال لكل من أوستين وسيرل ليُطوِّرا نظرية اللغة وعلاقتها بالواقع؛ فقد كان أوستين ـ مؤسس نظرية الأفعال الكلامية ـ هو من أثار الانتباه إلى ذلك النمط من النشاط اللغوي الذي يتضمّن في ذاته فعلاً سلوكياً، وتلميذه سيرل هو من وضع التنسيق العلمي لهذه النظرية ضبطاً منه

إنّ موضوع التداولية لم يكن دراسة اللغة في حد ذاتها بل دراسة استعمالها، وهو الأمر الذي لا ينحصر في الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق وعلى مستواها الصوري المجرّد فحسب، إنما يتجاوزها إلى أحوال الاستعمال حسب مقاصد المتكلمين والمخاطَبين.

18 ـ المرجع السابق، الفقرة 124، ص 200.

19 ـ رتيمي عمر، **التيار التداولي في ظل المناهج النقدية المعاصرة**، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد الثاني، 2011، ص 92.

20 ـ Henri Bergson, **Le Rire**, PUF, 8ème, éd. 1995, p. 156.

لشروط الإنجاز الناجح، ليأتي غرايس مسهماً بنظريته إسهاماً معروفاً في قواعد التخاطب، ثم من بعدهم من اللسانيين الغربيين في ميادين شتى تخص مجال الاستعمال اللغوي عموماً كالحجاج والسياق والتفاعل[21].

لم يكن البحث في اللغة ـ من وجهة نظر فلسفية ـ مركزياً إلا في القرن العشرين، حين عُدَّتْ اللغة الأداة المثلى والوسيلة الفضلى لحل المشاكل في مختلف فروع الفلسفة، عن طريق الفحص الدقيق للغة التي صيغت فيها هذه المشاكل، حتى كانت الفلسفة الأولى على حدِّ وصف «آبل»[22]. لذلك نجد رورتي يشير إلى أن المنعطف اللغوي هو وِجْهَة نَظَر تَرَى أن المشكلات الفلسفية هي المشكلات التي يمكن أن تُحلَّ أو تُلغى إما بإصلاح اللغة، أو بمزيد من الفهم للغة التي نستعملها[23]. وكان المشترك بين فلاسفة تيار المنعطف اللغوي هو جعْل اللغة هدفاً من أهداف البحث الفلسفي؛ حيث تبنّت الفلسفة التحليلية برمتها ـ قبل وبعد فيتغنشتاين ـ هذه المطارحات. حيث انعطف الموضوع من الحديث عن الوجود إلى الحديث عن اللغة وفي اللغة. وهذا كان واضحاً مع هايدغر عندما رأى أن «في الفكر على الوجود أن يأتي إلى اللغة. واللغة هي مأوى الوجود، حيث يقيم الإنسان»[24]. وسبق لميرلو بونتي أن قال أيضاً: «اللغة هي المشكلة الرئيسة في الفلسفة»، والفكرة نفسها أشار إليها غادامر بقولته الشهيرة: «إنّ الكينونة التي يمكن فهمها هي اللغة»[25].

وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول إن هذا الانعطاف نحو اللغة قد أخذ صوراً متعددة؛ **أولها:** الصيغة التي نسبت على وجه العموم إلى فيتغنشتاين، **وثانيها:** التي كانت مع الفلسفة الهيرمنيوطيقية حيث كان الاشتغال مركزاً على

21 ـ رتيمي عمر، مرجع سابق، ص 94.

22 ـ مرابطين ملية، **العلاقة بين الفلسفة التحليلية والفلسفة القارية قراءة في جينيالوجيا الاختلاف والتشابه**، مجلة دراسات، العدد 8، 2018، ص 204.

23 ـ Rorty. R, **The Linguistic Turn Essays in Philosophical**, **Method with Retrospective** Essays the University of Chicago and London, 1976, p.8.

24 ـ مارتن هايدغر، **رسالة في النزعة الإنسانية**، ترجمة عبد الهادي مفتاح، مجلة فكر ونقد، عدد 11، 1998، ص 117.

25 ـ فتحي المسكيني، **المعاني المتضاربة لعودة الدين لدى الفلاسفة الغربيين المعاصرين**، مجلة التفاهم، عدد 51، شتاء 2016، ص 157.

تحليل وظيفة اللغة من أجل الفهم والتفاهم. وتعد في هذا الإطار الهرمنيوطيقياً، منعطفاً ثانياً للغة بالمقارنة مع الفلسفة التحليلية، باعتبارها أعطت أهمية بالغة للغة. وهو ما أكد عليه «يورغن هابرماس» معتبراً أنه بالإضافة إلى الفلسفة التحليلية، فان الهيرمنيوطيقا أيضاً تعدُّ صيغة ثانية للمنعطف اللغوي[26].

ثالثاً: المنعطف التأويلي

لقد شكلّت التأويلية منعطفاً لغوياً ثانياً في الفلسفة المعاصرة، مقارنة بالفلسفة التحليلية، مما يؤكد مكانة اللغة الجوهرية في هذه الفلسفة، حيث رفعها مؤسس التأويلية الفلسفية غادامر إلى مستوى الفلسفة الأولى، وهناك من عدّها النموذج الإرشادي المنافس للفلسفة التحليلية. وتتميز اللغة بكونها مصدر الخطاب، ومن ثم تكون مصدراً لسوء الفهم، ولكن في الوقت ذاته تكون مصدراً لإثراء اللغة، ويسمح للمرء بأن يتلاعب بالمعاني المرتبطة بكلمة واحدة، بعكس اللغة العلمية التي تقوم باختزال هذه التعددية. ورغم أن تيار التأويلية بمن فيهم ريكور تجاهل العلاقة بين اللغة والسلطة؛ لأنه اعتقد أن كل شيء يجري كما لو أن اللغة أصل لا أصل له.

لقد شكلّت التأويلية منعطفاً لغوياً ثانياً في الفلسفة المعاصرة، مقارنة بالفلسفة التحليلية، مما يؤكد مكانة اللغة الجوهرية في هذه الفلسفة، حيث رفعها مؤسس التأويلية الفلسفية غادامر إلى مستوى الفلسفة الأولى.

وهو ما يقربه ـ وإن بطريقة مغايرة ـ من أبحاث رولان بارت وفوكو وبورديو في هذا المجال. يقول بارت في نفس السياق: «هكذا، فاللغة تفترض، بحكم بنيتها ذاتها، علاقة استلاب حتمية. فأن نتكلم، أو أن ننشئ خطاباً، ليس هو أن نتواصل، كما يُرَدَّدُ في معظم الأحيان؛ بل هو أن تسيطر الذات وتبسط سلطتها... وما إن ينطق لسانٌ ـ ولو في قرارة الذات ـ حتى ينخرط في خدمة سلطة معيَّنة»[27]. هذا ما يبين أن وظيفة اللغة لا تنحصر في التواصل فقط؛ بل تتعداها لتلعب وظيفة سلطوية تجعل معها عملية التأويل عملية حبيسة داخل السلطة الاجتماعية المحايثة

---

26 ـ يورغن هابرماس، **ايتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة**، ترجمة، عمر مهيبل، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، الطبعة الأولى،، 2010، ص53.

27 ـ Roland Barthes, **Leçon**, Paris, Le Seuil, 1978, pp. 12-13.

لبنية اللغة. مما «جعل السلطة حاضرة في كل مكان»[28]، خاصة في الكلمات والخطابات. لذلك فمن أراد أن يفهم سلطة الظواهر اللغوية ونفوذَها عن طريق اللغة فحسب، عليه ألّا ينسى أن اللغة تستمد سلطتها من الخارج. وهذا ما أكده بورديو عندما قال: «وفي الواقع، إن استعمال اللغةِ ـ وأعني محتوى الخطاب وكيفية إلقائه في الوقت نفسه ـ، يتوقفان على المقام الاجتماعي للمتكلّم، ذلكَ المقامُ الذي يتحكمُ في مدى نصيبه من استعماله لغةَ المؤسسةِ واستخدام الكلام الرسمي المشروع[29]. وهذه الاجتهادات الفكرية التي ظهرت في الفضاء الفكري الفرنسي جعلت ريكور يفتح التأويلية المنهجية على جبهة النقد الأيديولوجي ودور المصالح في المعرفة، والدور الاجتماعي والسياسي لكل خطاب وعلامة. ولقد مكّنه هذا الانفتاح من الخروج من المنعطف اللغوي، والدخول في تحليل مسائل التاريخ والذاكرة، وتقديم منظور لغوي جديد يظهر في مفهومه للغة وطريقته في التأويل، يمكن تسميته بالتداولية السردية[30].

لقد ارتبط التأويل باللغة والفكر، خصوصاً عندما كنا نعتقد غالباً أننا نعرف ما نريد قوله، ولكن الكلمات لا تسعفنا، فعملية التأويل هي عملية تفكيك سلطة الخطاب، فالخطاب ليس محايداً ولا يخدم جماعةً ما باستمرار. وقد وضّح بورديو ذلك في عبارته التالية: «إن من يهمل مسألة استعمالات اللغة ومن ثم مشكلة الشروط الاجتماعية لاستخدام الكلمات لا بد أن يظلّ طرحه لمسألة سلطة الكلمات ونفوذها طرحاً ساذجاً»[31]. وهذا الموقف أيده ألتوسير حينما بَيَّن أن كل الصراع الاجتماعي بين طبقات المجتمع يمكن أن يختزل في النهاية إلى صراع من أجل كلمة ضد كلمة أخرى[32]. لكن هل توظيف اللغة في الصراع من

28 ـ ميشيل فوكو، **جينالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1988، ص 79.

29 ـ پيير بورديو، **الرمز والسلطة**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1986، ص 65.

30 ـ الزواوى بغوره، **الفلسفة واللغة: نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الاولى، 2005، ص 128.

31 ـ پيير بورديو، مرجع سابق، ص 63.

32 ـ L. Althusser, **Positions**, Paris, éd, sociales, 1976, p.46.

أجل السلطة يكون بشكلٍ واعٍ؟ ليست اللغة هي التي تمتلك طابعاً أيديولوجياً؛ بل الاستعمال الذي تُستعمل فيه. ولكن هذا المجهول الذي ستخدم لغته استخداماً إيديولوجياً ليس فرداً واعياً وحرّاً في كلامه وأقواله؛ بل إن هذه الأقوال خاضعةٌ ومنظمةٌ بالرغم عنه ـ ومن دون معرفة منه ـ بواسطة مجموعة من القواعد الخاصة بالإيديولوجيا... مثل استعمال ألفاظ غامضة، أو تشبيهات تعسفية، أو المصادرة على المطلوب، هي مظاهر غير واعية من طرف الفاعل[33]. هكذا دخلت اللغة في منظومة متكاملة من العناصر (كالمجتمع والسلطة والايديولوجيا) التي تؤلف الهوية والكينونة والثقافة. وبفعل تطورها هذا أصبحت ممثلاً وحيداً للفكر ومكوِّناً وحيداً للخطاب. فاللغة لم تكن أصواتاً ورموزاً اعتباطية؛ إنما وجدت في العالم لتساعد على حل غموضه. لذا فاللغة في هذا العصر تاهت بالكامل في لعبة التأويل، فكل نص يتم تأويله وكل تأويل يتمّ تأويله بدوره[34]. مما يعني أن كل خطاب موسوم بانتشار مختلف للسلطة، فالمبالغة في تأويل الخطاب والتأويل المضاد هو السعي نحو بناء السلطة مما يجعل الفهم يكون في جوهر هذا الصراع؛ فالفهم دائماً ما يكون على بينة من المنظور الذي نأتي به في عمل التفاهم. الفهم من إنتاج لغتنا، تاريخنا، تقاليدنا. نشارك في حوار مع الآخرين للسماح لكشفهم. كما نحاول السماح للعالم من حولنا بالتحدث. هكذا، سيظل التفاهم هو الوسيلة الأساسية للمشاركة في العالم والانتماء إليه.

لقد ارتبط التأويل باللغة والفكر، خصوصاً عندما كنا نعتقد غالباً أننا نعرف ما نريد قوله، ولكن الكلمات لا تسعفنا، فعملية التأويل هي عملية تفكيك سلطة الخطاب، فالخطاب ليس محايداً ولا يخدم جماعةً ما باستمرار.

من هذا المنطلق، فإذا نجحت البيئة المُعَوْلَمَة المعاصرة في أن تجعل كثيراً من الناس يبدون مختلفين عنا؛ فإن الفهم يجعل الشخص يبدو أكثر غرابة.

33 ـ أوليڤي روبول، **اللغة والإيديولوجيا**، دفاتر فلسفية، الجزء الخامس، ترجمة، محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، البيضاء، الطبعة الأولى، 2005، ص115.

34 ـ عصام حمزة، غرف العقل المغلقة: كيف يفكر إنسان الغرب، نظر يوم 10 أبريل 2019، الرابط التالي: https: //www.ida2at.com/mind-closed-rooms-how-do-western-people-think/

فالمهمة الأساسية التي يقوم بها علماء التأويل هي التفكير في طبيعة الفهم الإنساني؛ لذلك نجد ريكور يسعى - بإدراجه مسألة المعنى - إلى أن يجعل المقاربة الهرمنيوطيقية في صلب بحث وجود الذات والذاتية في الفكر المعاصر، وذلك بأن يضع التأويل كإحدى بؤر الشرط الإنساني، حيث يجد كل فرد (وكل جيل) ذاته مدفوعاً إلى إعادة تأويل العالم الذي يوجد فيه، انطلاقاً من القراءة المتجدّدة لكل ما هو لا إرادي فيه، أي لما يسبقه في الطبيعة (طبيعته الخاصة)، وفي الثقافة (النظم والأعراف والأفكار والقيم السائدة)، سعياً إلى بناء علاقات مفتوحة مع الذات والغير، قائمة على الاعتراف المتبادل[35]. وفي الحالة هذه، فإن مشروع ريكور هو استكشاف ابتكار السرديات الخاصة بنا لإعادة تأكيد «تجربتنا الزمنية المشوشة وغير المشكَّلة، وعلى الحد الأقصى هي صمت مؤقت»[36]. إن ريكور تطور تطوراً منهجياً في إنتاج السرد وتطبيقه، حيث إنه جعل اللغة والثقافة ينخرطان دائماً بالفعل في التوتر بين الفوضى والنظام الذي يشكل حياتنا[37]. يعني أنه يتم إنشاء هوية في الحياة مثلما يتم إنشاء قص بالفعل ضمن سياق طرح في العالم. إنه لم يعد بالإمكان عَدُّ اللغة مجرد مشكلة من بين مشكلات أخرى، إلى الحد الذي يسمى «مشكلة اللغة». والذي يتم تعريفه على الدوام ضمن أفق اللغة نفسها. وبعبارة أخرى: من الصعب تصور ما يعنيه تفسير العالم بطريقة غير لغوية، بالنظر إلى حقيقة أننا كائنات لغوية أساساً ولا مفر من ذلك. نحن نعيش ونتحرك وكينونتنا في لغتنا فقط. اللغة تسبقنا ونحن ننتظرها، لا يمكننا تخليص أنفسنا من اللغة تماماً بنفس القدر الذي يمنعنا تخليص أنفسنا من بشرتنا[38]. هذا الإدراك مفاده أن العالم (الواقع) لا يمكن أن يقدم نفسه إلا في اللغة؛ حيث إنه لا توجد مساحة خارجية أو محايدة يمكنه أن يدرج فيها.

35 - عبد الحق منصف، **پول ريكور أنطلوجيا القدرة الإنسانية وإعادة موقعة الذات في الفكر المعاصر**، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد 14، ص 6.

36 - Francis J. Mootz III and George H. Taylor, **Gadamer and Ricoeur** Critical Horizons for Contemporary Hermeneutics, Continuum Studies in Continental Philosophy, 2011, p.122.

37 - Ibid, p.123.

38 - James Fodor, **Christian Hermeneutics** Paul Ricceur and the Refiguring of Theology, Clarendon Press, Oxford, 1995, p.4.

«فاللغة هي الوسط الذي يتم فيه تفاهم الشركاء والتوافق بينهم على الشيء»[39]. علاوة على ذلك، يزعم بعضهم أنه نظـراً لعدم وجود مبرر وجودي للغة بصرف النظر عن اللغة نفسـها، فليس من المنطقي التحدث عن العلاقات بين العالم والكلمات. ومن بين هؤلاء تيار الوضعية المنطقية، الذين يشكون بشكل مميّز من أن لغتهم اليومية دائماً ما تكون خشنة وغير دقيقة لما يريدون حقاً أن يقولوه، وأنه من الضروري بناء لغة دقيقة منطقياً.

بمعنى آخر، كيف يمكن للبشـر أن يتعاملوا مع عالمهـم ويتفاعلوا معه؟ مما لا يعني أنه لا يمكن تقديمها بشكل شـامل فيما يتعلّق ببعض الظواهر الأساسية واللغوية. إن التمييز بين اللغــة والعَالَم ليس فقط مهماً ولكنه ضروري، بعيداً عن أن يكون تعسفياً أو مجرد «مســألة كلمــات». فــي الواقع يجــب عدم التغاضي عــن القــوة الوجودية للتمييــز بين اللغة والعَالَم علــى هذا النحو[40]. باختصــار العلاقة بين اللغة والعَالَم غير متجانسة بطبيعتها. والحالة هذه، تبيّن أن إهمال إجراء مناقشات حول اللغة والحقيقة والمرجـع ـ ضمن سـرد وصـف «عميـق» بما فيه الكفاية ـ لا يـؤدي إلا إلى التعتيـم والتنافر؛ لأنه عندما لم تعد هذه القضايا مرتبطة بالممارســات اليومية لطريقة حياة معينة محددة (التي تنشأ منها والتي تستمد منها وضوحها)، فإنها تميل إلى أن تأخذ منحًى ميتافيزيقياً خالداً[41]. فما دام دور اللغة الأساســي هــو دور تواصل العقل ـ من خــلال علاقة آلية بين السبب والنتيجة ـ مع العالم الخارجي، ووصفها كهيكل بمثابة وسيط يعزز فقط الفارق الأنطولوجي وانفصال تلك الحقائق التي تتطلب ـ من وجهة النظر هذه ـ

لم يعد بالإمكان عَدُّ اللغة مجرد مشكلة من بين مشكلات أخرى، إلى الحد الذي يسمى «مشكلة اللغة». والذي يتم تعريفه على الدوام ضمن أفق اللغة نفسها. وبعبارة أخرى: من الصعب تصور ما يعنيه تفسير العالم بطريقة غير لغوية.

39 ـ هانس جـورج غادامر، **اللغة كوســيط للخبرة الهرمنيوطيقية**، ترجمة، جـورج تامر، مدارات فلسفية، العدد 16، 2008، ص 201.

40 ـ Ibid., p.5.

41 ـ Ibid., p.6.

الوساطة. هذا الوضع أفرز مجموعة من الأسئلة الأكثر وضوحاً وإلحاحاً: ما طبيعة العلاقة بين اللغة والعالم؟ وكيف يمثل هذان الواقعان بدقة أو يرتبطان ببعضهما بعضاً؟ وكيف أعرف أن كلماتي تعكس ـ بأمانةٍ ـ الواقع وتمثله وتتصل به وتشير إليه؟ كيف يمكنني التأكد من أنني لا أُخْدَع بكلمات الآخرين أو حتى كلماتي الخاصة؟ هذا ما يحاول المنعطف التواصلي مع هابرماس مناقشته وتحليله.

رابعاً: المنعطف التواصلي

يعدُّ السجال الفلسفي ـ الذي عرفته اللغة بشكل خاص والتداوليات بشكل عام ـ مؤسساً لظهور تيارات ومناهج متعددة. وبحكم معايشة هابرماس لهذا السجال، سيستفيد من مناخ الانفتاح الفكري والسياسي وسيسهم بفلسفته النقدية في تقوية هذا الانفتاح. وفيما يخص دور **اللغة** في العلاقات التواصلية داخل المجتمع يصطدم هابرماس بالتصور المنطقي والتأويلي والوصفي.

غير أن هابرماس يرفض الفلسفة الوصفية والمنطقية بأبعادها؛ إذ الفلسفة في نظره اليوم هي أن تفتح للعقل الفعل النقدي وأن تعيد صياغة مفاهيم كثيرة. فامتلاك الحقيقة المطلقة أو الاكتفاء بمنهج معين ـ أو بتيار معيّن تبيّن معه، أنه لم يصل للإجابة عن الإشكالات الكبرى المعاصرة، ولهذا نجد محاولاته في نقد التيارات الفلسفية التي ظهرت في فرنسا وألمانيا وأمريكا. وبفحصه لتاريخ الفلسفة بيَّن أن هذه الفترة تميّزت بهيمنة ستة تيارات فلسفية، فرضت نفسها لمواجهة الكانطية الحديثة حتى خارج ألمانيا؛ مثل **الفينونولوجية والوجودية** مع هوسرل وهايدغر، **أنثروبولوجية فلسفية** مع ماكس شيلير، **وفلسفة اجتماعية** نقدية تنحو إلى العودة إلى ماركس وهيجل ويمثلها لوكاتش، بنجامين، وهوركهايمر، ثم **الوضعية المنطقية** مع كارناب وفيتغنشتاين، **وبنيوية** فوكو وبارت، وأخيراً **تأويلية** ريكور وغادامر.

يسعى هابرماس إلى تكريس مقاربة العقلانية في المجتمع المعاصر، وهي ليست عقلانية أداتية ولا عقلانية مطلقة تدعي الفلسفة بناءها لوحدها؛ بل عقلانية تواصلية، نقدية، إجرائية محايثة للغة والفعل والعالم المعيش. وذلك باستثماره للاجتهادات التي قدمتها الفلسفة الهيرمنيوطيقية والتداولية من

خلال تركيـــز الأولى على مفاهيم مثـل التأويل، العالم المعيــش. وما قدمته فلسفة اللغة والفينومينولوجية، والتي تركز بحوثها على مفاهيم اللغة اليومية المتداولة، والعلاقة بين الـــذوات المتفاعلة في العمليـــة التواصلية. فعمليات التفاهم بيـــن الذوات في العالـــم المعيش تحتاج إلى جمع جميـــع المقاربات المنهجية والتيارات الفلســـفية الســـالفة الذكر؛ لمقاربة الإشكالات الفلسفية المرتبطة بالرؤيـــة التداولية، والتي يُعدُّ الإنســـان واللغـــة والعَالَمْ جوهرها، فالدور التواصلي الذي تقوم به الفلسفة من شـــأنه أن يسهم في بناء مجتمع تواصلي وتحقيق التفاهم بين الذوات.

يعدُّ السجال الفلسفي ـ الذي عرفته اللغة بشكل خاص والتداوليات بشكل عام ـ مؤسساً لظهور تيارات ومناهج متعددة. وبحكم معايشة هابرماس لهذا السجال، سيستفيد من مناخ الانفتاح الفكري والسياسي وسيسهم بفلسفته النقدية في تقوية هذا الانفتاح.

لقد بـــدأ النقاش قبـــل **هابرماس** مـــع كل من «**هوركهايمر**» و«**أدورنو**» ضمن إحدى مقالتيهما، إذ يؤكد هوركهايمر «إن الوظيفة الاجتماعية الحقيقية للفلســـفة إنمـــا تكمن فـــي نقدهـــا لما هو ســـائد مهيمن»[42]، فيما يدعو أدورنو كل ممتهن للفلســـفة إلى التخلي عن المثالية مبرزاً ذلك في قوله: «من اختار اليوم أن يمتهن الفلسفة فعليه أن يتخلى منذ البداية عن الوهم الذي رافق المشـــاريع الفلسفية وهو وهم إمكانيـــة إدراك كلية الواقـــع بمجرد قوة الفكر»[43]، وهو أن الهيمنة والسيطرة وثيقتا الصِّلة جـــدّاً بالعقلانيـــة. والأمـــر لا ينحصر فـــي العلم والتكنولوجيا فحســـب؛ بل العقلانية نفســـها تعدُّ عنصراً ضمنيّاً في الهيمنة[44]؛ لذلك جاءت النظرية النقدية تأمُّلية، أوْ لها وعي ذاتي متأصل فيها. فالنظرية

42 ـ M. Horkheimer, **La fonction sociale de la philosophie**, Tumultes, 1 numéro 17-18, 2002, p.353 “La réelle fonction sociale de la philosophie réside dans sa critique de ce qui est dominant”.

43 ـ T. W. Adorno, **L’actualité de la philosophie**, Tumultes 2 numéro 17-18, 2001, p.153 “Celui qui choisit aujourd’hui de faire de la philosophie son métier doit renoncer dès l’abord à l’illusion qui accompagnait autrefois les projets philosophiques: à savoir qu’il est possible de saisir la totalité du réel par la force de la pensée”.

44 ـ جيمس جوردن فينليســـون، **يورغن هابرماس مقدمة قصيرة جداً**، ترجمة أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2015، ص 24.

النقدية تأملت السياق الاجتماعي الذي أدى إلى نشأتها ووظيفتها داخل هذا المجتمع. لكن هابرماس يقدم لنا تشخيصاً تاريخيّاً للوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي مختلفاً تماماً عما يقدمه هوركهايمر وأدورنو، هو أن هابرماس أمسى مهتمّاً بمنهج البراغماتية الأمريكية الذي وضعه ويليام جيمس وجورج هربرت ميد وجون ديوي، وتشارلز ساندرز بيرس، والمنهج التأويلي غير المنقطع الصلة تماماً، والممتد من فلهلم دلتاي إلى هانز جورج غادامر، اشترك هذان المنهجان ـ البراغماتية الأمريكية والتأويلية ـ الألمانية، في فرضية مهمة، وهي أن الفلسفة يجب أن تجد لها مستقراً في الحياة اليومية، وتحافظ على رابطها بها. ويتعيّن أن تؤتي النظريات والمفاهيم الفلسفية ثمارها بإحداثها فارقاً في حياة أناس حقيقيين وتجربتهم في عالم الواقع[45]. ويمكن للُّغة أن تفي بهذه الوظيفة؛ نظراً لغايتها المتأصلة المتمثلة في الوصول إلى الفهم أو تحقيق الإجماع.

يرى هابرماس استحالة فرض تأويل وحيد على جميع أفراد المجتمع في مجتمع الحداثة، والذين أصبحت الوسيلة التقنية متحكمة في تصرفاتهم؛ يقول هابرماس: «لا تستطيع الحداثة أن تستعير المعايير التي تسترشد بها من عصر غابر، مثلما أنها لا ترغب في ذلك، فهي تكابد ملزمة لتستخرج معياريتها من ذاتها، ولا يمكن لها أن تعتمد إلا على نفسها[46]»، ومن ثم، فوظيفة التداولية التواصلية هي الوصول إلى تحقيق تواصل أفضل في ظل فشل أطروحات الحداثة في تحقيقه. لذلك حاول هابرماس أن يبتكر طريقة جديدة من داخل الفلسفة مشتغلاً على الحداثة كمشروع لم يكتمل بعد؛ بطريقة تبدأ بتحليل استخدام اللغة؛ مما يجعل الأساس العقلاني لتنسيق الفعل يكمن في الكلام. ويربط هابرماس هذه الطريقة الجديدة بتحوُّل أكثر عمومية في الفلسفة، يطلق عليه اسم «التحوُّل اللغوي»[47].

---

45 ـ المرجع السابق، ص 34 ـ 35.

46 ـ J. Habermas. Le discours philosophique de la modernité, Paris, Gallimard, p. 8.

نقلاً عن حسن المصدق **يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية**، ص 111.

47 ـ جيمس جوردن فينليسون، مرجع سابق، ص 44.

يعدُّ مفهوم التحول اللغوي اجتهاداً فلسفياً ظهر مع فيتغنشتاين خصوصاً وفلاسفة اللغة عموماً، ميز أصلاً محاولات مختلفة قام بها مختلف فلاسفة القرن العشرين لحل الخلافات المعرفية والميتافيزيقية المستعصية ظاهراً عن طريق دراسة الحقائق المفاهيمية المتأصلة في استخدامنا للُّغة.

وتُعدُّ نظرة هابرماس للمعنى براغماتية؛ لأنها لا تُرَكِّز على ما تقوله اللغة؛ بل على ما تفعله؛ فهي نظرية لـ «استخدام» اللُّغة، وينطلق هابرماس من تعريف اللُّغة عند «**كارل بوهلر**» (1879 ـ 1963) ـ المُنَظِّر اللغوي الألماني ـ بوصفها «أداة ينقل بها المرء فكرة للآخر عن العَالَمْ». يطور هابرماس هذه الفكرة قائلاً إن الوظيفة البراغماتية للكلام هي الانتقال بالمتحاورين إلى نقطة فهم مشتركة، وتحقيق الإجماع الذاتي المشترك، وأن هذه الوظيفة تتمتع بأفضلية على وظيفة الدلالة على واقع العَالَمْ[48]. يزعم هابرماس أن الوظيفة الأساسية للكلام هي تنسيق أفعال جمهور الفاعلين كأفراد، وإتاحة المسارات الخفية التي يمكن للتفاعلات أن تتجلى فيها بطريقة مُنَظَّمَة وخالية من الصراعات. فالتواصل داخل العَالَمْ وعبره لن يتمّ إلا بواسطة اللغة، سواء بالفهم أو بالتأويل وبشكل حجاجي. فإذا كنا نستطيع عدّ العملية التواصلية مقرونة بالحجاج، فإنه يأتي من أجل التفاهم والإصلاح، لا من أجل إلغاء الآخر، ومن ثم، فالتفاهم ـ كما يراه هابرماس ـ مقرون ـ تبعاً لهذا ـ ومحصور بإرساء القواعد المعيارية التداولية لا النصية كما عند أوستين.

> **يتعيّن أن تؤتي النظريات والمفاهيم الفلسفية ثمارها بإحداثها فارقاً في حياة أناس حقيقيين وتجربتهم في عالم الواقع. ويمكن للّغة أن تفي بهذه الوظيفة؛ نظراً لغايتها المتأصلة المتمثلة في الوصول إلى الفهم أو تحقيق الإجماع.**

تَفْتَرِضُ عَملية التواصل اللُّغة بوصفها الوسط الذي يُمْكن أن يَتَحَقَّق منه نَوعٌ من التفاهم بين المتحاورين، ولا يمكن لهؤلاء تحقيق التفاهم وتحري الصدق إلا بواسطة اللغة التي تُعدّ أساساً لتحقيق التواصل. ليس كلُّ تواصل لغة؛ وإنما كل لغة هي تواصل، والذي يتحقّق في «سياق العالم المعيش الذي يشكل إطاراً لتفاعلات متوسطة باللغة»[49]، لذا راح هابرماس يؤسس أخلاقيات التواصل على «مبادئ عقلية تستمد بعض عناصرها من التداوليات العامة؛ لأن هذه التداوليات هي التي تسمح بالتفكير في الأساس

48 ـ المرجع السابق، ص 49.

49 ـ J. Habermas. **De l’éthique de la discussion**, tr. Mark Hunadi.- ed Flamarion, 1992. p. 139.

الذي يجعل من التلفظات أو أفعال الكلام حقيقية دقيقة»[50]. إن **المنعطف التواصلي** مع هابرماس يتأسّس على الحوار والبرهان، ومن ثم فهو واقعي تدرك فيه الحقيقة ويفهم فيه العَالَمْ بناء على معيار الحجاج والبرهان العقلي، ووسيلته في ذلك اللغة، وهذه الأخيرة قائمة على شروط معيارية تتصف بالصدق والمصداقية والصلاحية والمعقولية، فاللغة حاملة للمعنى للعقلانية، وبها نعرف وندرك الآخر والعَالَم معاً؛ لذلك «فنحن لا نعرف إلّا بقدر ما نفهم معنى كينونتنا؛ ونحن لا نؤوّل إلّا لأنّ كينونتنا هي أمر واقع وليس اختياراً»[51].

خامساً: كيفيات تجاوز الجمود الراهن في تشرذم المناهج الفلسفية

شكّلت **المنعطفات** التي تناولناها في هذه البحث مفاتيح، سمحت لنا ببناء المسعى النظري الذي قاربنا فيه الرؤية التداولية لدى بعض الفلاسفة، في حدود ما يسمح به الوقت ويتيحه الجهد الفردي. وقد ركزنا على مدخل اللغة، والتي كانت تجمع هؤلاء الفلاسفة الذين تناولنا بعض أفكارهم؛ لأن اللغة هي القاسم المشترك في رؤيتهم التداولية. ويندرج إبرازنا ـ في محور دراستنا الأخير ـ المنعطف التواصلي بوصفه أحد المداخل الملائمة لتجاوز التشرذم القائم في مناهج العلوم الإنسانية، ضمن تصورٍ بدا لنا فيه أن تجاوز الجمود الراهن ـ الذي عنوانه تعدد المقاربات المنهجية والمعرفية ـ أقرب السبل إلى تحرير الفلسفة من التيارات الفكرية التي تتلاعب بمبادئها وقيمها. إضافة إلى ذلك، تنطلق المقدمة الكبرى لهذا التصور من مبدأ عام يسلم بأهمية الجمع بين **التخصصات العلمية** في تجاوز معضلات الإنسان، بمعايير التراكم المعرفي والمنهجي.

فتحرير المجتمعات من **الجمود**، وإعادة تكوين القدرة على الخلق والإبداع، لا يتمّان إلا بتعميم الفكر العقلاني، وذلك من أجل مزيد من البحث الرامي إلى **تجاوز** الجزر المنهجية والمعرفية المنغلقة على ذاتها؛ كأننا أمام

50 ـ محمد نوردين افاية، **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة**، افريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 1998، ص، 207.

51 ـ فتحي المسكيني، مرجع سابق، ص145.

موناداتles Monades ليبنتز. إن أصل هذه الحقول العلمية الكثيرة والمختلفة المناهج كان هو الفلسفة؛ لكن الفلسفة اليوم يتمّ أقصاؤها بحجة أنها عبارة «عن علم زائف يستغل غموض الكلمات»، ويتمّ اتهام الفلاسفة أنهم دأبوا على تعقيد ما هو واضح، بدلاً من إيضاح ما هو غامض. من هنا ندرك مدى عمق الإشكال الذي يعاني منه العقل الإنساني. ولتجاوز هذا التشرذم على الفلسفة أن تستعيد صورتها الأولى، المتسمة بطابع الشمولية (لكن بمفهوم جديد هو العابر للتخصصات)، الذي كانت تتميز به عند نشأتها على نحو منظم ومنهجي. أو كعلم بالمبادئ والعلل الأولى للوجود كما قال أرسطو. لكن كيف يتمّ ذلك؟

شكّلت المنعطفات التي تناولناها في هذه البحث مفاتيح، سمحت لنا ببناء المسعى النظري الذي قاربنا فيه الرؤية التداولية لدى بعض الفلاسفة، في حدود ما يسمح به الوقت ويتيحه الجهد الفردي.

لا يمكن للفلسفة أن تحقق مهمتها إلا إذا كانت تحتضن كل العلوم الجزئية، وهو المعنى الذي اتخذته منذ نشأتها الأولى باليونان. وقد انتبه هوسرل لمشكل انفصال التخصصات العلمية بعضها عن بعض، وبيَّن «أن أزمة العلوم الحديثة تتجلى في تشتتها، الذي يرجع بالأساس إلى استقلالها عن الفلسفة»[52].

إن التأمل في تشتت التخصصات العلمية المعاصرة هو دليل على أن مسألة تجاوز الحدود الفاصلة بين هذه الحقول المعرفة المختلفة ضرورية، فلقد أضحت المفاهيم (المنعطف اللغوي، المنعطف التأويلي المنعطف التواصلي..) شعاراً لتشعّب النظريات؛ بل حقيقة تكشف تشظّي المنهج وتشتّته، لتتخذ عملية بناء المفاهيم إطاراً لنظرية نقدية عبر تخصصية؛ ستبيّن لنا قيمة التضافر الذي سيحصل بين البنيوي والتأويلي، الرياضي المنطقي، والسيميائي، والفلسفي، والفينومينولوجي.. هذه القيمة أنتجت نظرية معرفية تجاوزت التخصص إلى ما هو بين ـ علمي، تحت مسمى النظرية العابرة للتخصصات أو العابرة

52 ـ إسماعيل المصدق، **هوسرل وأزمة الثقافة الأوروبية**، مدارات فلسفية، العدد 1، 1998، ص13.

للمناهــج؛ لأنّ النظرية أو المقاربــة العابرة للتخصُّصــات، نظريَّة تقوم على الإلمام بتخصُّصات متعــددَة، وذات آليات ديناميكيــة متحركة غير ثابتة. مما يجعل حقائقها غير دوغمائية.

وعلى الرغم من جميع المزايا التي يتمتع بها أدب الدراسات المشتركة بيــن التخصصات؛ فإنه يعاني مــن أوجه قصور كبيرة؛ نظــراً لأن عدداً من المواضيع الفلســفية والمعرفية الأكثر إلحاحاً، لا تعالــج - إلى حدٍّ كبير - المسائل المتعلقة بالتخصصات المتداخلة[53]؛ لذلك وجب التفكير في الأسئلة التالية؛ مثل: هــل كانت الفلســفة تخصصاً واحــداً على الرغــم من عدم تجانســها؟ وهل الإحصاء تخصص متميّز عن بقية علــوم الرياضيات؟ وهل جميع تخصصات العلوم الإنسانية تشترك في خصائص مشتركة تميزها عن التخصصات التي تنتمي إلى العلوم الطبيعية أو الاجتماعية؟ ومن المســائل العامــة التي يتعيّــن النظر فيها مســتوى التمييــز التجريدي بيــن مختلف التخصصــات: «أقترح التفكير فــي التخصصات المتعددة مــن حيث تكامل المنهج بدلاً من تكامل التخصصات»[54]. بناءً على ما سبق يمكن تطوير حقل التداوليات ليرتقي بالتداوليات المدمجة. من خلال الالتفات إلى أهم قضية تواجه المعرفــة ومناهجها، مــع ضرورة الانفتــاح على مجموعــة التحولات المعرفية والمنهجية التي طرأت في نظرية اللغة وأصولها. وهكذا، فالتداولية «ليســت علماً لغوياً محضاً بالمعنى التقليدي، علماً يكتفي بوصف وتفســير البُنَى اللغوية، ويتوقف عند حدودها وأشــكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر؛ اللغوية في مجال الاستعمال؛ ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة (التواصل اللغوي وتفسيره)»[55].

53 - Rolf. Hvidtfeldt, **The Structure of interdisciplinary Science**, New Directions in the Philosophy of Science, Palgrave Macmillan, 2018, p.5.

54 - Ibid., p.47.

55 - صحراوي مســعود، **التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي**، دار الطليعة للطباعة والنشــر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005، ص 16.